

## الفصل الثاني

### الاسم والإطلاق

#### مناقشة وترجيح

إن ترجيح وجه على وجه في مسألة تشتمل على عدة وجوه أو تحتل أكثر من تفسير يحتاج لأسس، تدعم الرأي الراجح وتقويه كما يرتكز على مناقشة موضوعية للآراء الأخرى يظهر من ثناياها ضعف وجهات النظر المعارضة للرأي الأقوى؛ وكذلك تفتقر عملية الترجيح إلى كثير من الحجج الناصعة التي تجعل الخصم مستريحاً لقبول الأمر الراجح ومستعداً للتنازل عن المرجوح، وطبقاً لهذه البديهيات العلمية فإننا نعرض لكلمة صوفي ومن أين اشتقت؟ ثم نمحص الآراء المذكورة في هذا الصدد ونبلوها؛ لنستنج منها ما هو أقوى سنداً وأبهر حجة.

#### هل تصح التسمية أولاً؟

العالية العظمى من الصوفية؛ على أن رجال الطريق مازالت عليهم سمات البشرية المخلوقية وعلائق الآدمية. وما زالوا صالحين للتسمية بمعنى أنهم لم يتخلصوا من الموضوعات التي تتجانس مع غيرها فتسمى ولم يتحللوا نهائياً من الأمور التي يمكن إطلاق الأسماء عليها ولم تنقطع جميع الوشائج بينهم وبين المخلوقية؛ حتى تتعذر التسمية مهما وصلوا في أحوالهم إلى قمة المذاقات الفنائية أو الشهودية.

وبعض أنصار التسمية يرى أن النفس بما تتصف به من مقامات وأحوال هي موضوع التسمية لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ولولا ذلك لما لاقت بهم الأسماء ولا تعلقت بهم<sup>(١)</sup> على حد تعبير أبي بكر الشبلي الذي يرأس هذا الفريق.

(١) السراج: للمع: ٢٩٦: ٤٠-٤١.

والبعض الآخر يذهب إلى أنهم متفاوتون في معانيهم وأحوالهم وعلومهم فلا ينتسبون إلى علم دون علم؛ لنبوغهم في جميع العلوم كما لا ينتسبون إلى حال أو مقام لأنهم لم يترسموا يرسم من الأحوال والمقامات دون رسم<sup>(١)</sup>، وهو محل جميع الأحوال السنية والأخلاق الشريفة. وفي تنقل دائم من حال إلى حال مستأهلين للزيادة فلماذا ما أضيف إليهم حال دون حال ولا أضفتهم إلى علم دون علم<sup>(٢)</sup> اللهم إلا الإضافة إلى ظاهر اللبسة<sup>(٣)</sup>، والتسمية باعتبارها هذا تكون لهم اسماً بجملاً عاماً مخبراً عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة<sup>(٤)</sup>.

وإلى هذا الرأي يذهب أبو الحسن القناد وأبو نصر السراج. وعلى كل فالتسمية جائزة الوقوع سواء ارتبطت بوضع الصفات النفسية أو بظاهر الرسم حسب مذهب كل من الفريقين.

ويغالى بعض أرباب الطريق فيرى أن الصوفي خف وشف؛ حتى صار أثري المقام والحالز وأضحى كبريتاً أحمر يعز نسبه إلى شيء من الأكوان لانعدام الروابط والمجانسة بينه وبين عالم المسميات والأسماء.

وأيضاً لما كانت التسمية من الرسوم وولي الله لا يسم نفسه بسيماه فلا يكون له اسم يتسمى به<sup>(٥)</sup> حسبما جاء في أقوال أحمد بن الحواري (٢٣٠هـ) ويقول أبو بكر الزقاق (٣٥٩هـ): كل أحد ينتسب إلا نسب الفقراء فإنهم

(١) السراج: للمع: ٢٩٦: ٤٠-٤١.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) طبقات السلمي: ٢٥

ينتسبون إلى الله تعالى. وكل حسب أو نسب ينقطع إلى حسبهم ونسبهم<sup>(١)</sup> وما دام الأمر كذلك وأنهم تعرفوا عن الرسوم المكانية والزمانية والمادية. وانفصل نسبهم عن عالم الشهادة الذي يصحح التسمية ويحتشد بالأسماء على اختلاف اطلاقاتها من جامدة ومشتقة واتصل بعالم الغيب ومُنح الربوية فإنهم بذلك أشهر من أن يحتاج في تمييزهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق<sup>(٢)</sup>، وبهذه الشفافية والعروج الدائب إلى الله والتنقل المستمر في جنبات فضله؛ تصبح الإشارة والعبارة ممنوعتين على الصوفي<sup>(٣)</sup>، كما هو عند القشيري والمجويري.

والشيء الذي لا يقبل الجدل هو اليقين بأن التسمية جائزة وليس هناك من الموجودات سواء من كان أزلياً كالحق جل جلاله أو ينتابه الفساد كبقية المخلوقات دونه ما لا يقبل التسمية. فالله سبحانه له أسماء المشهورة وللملائكة أسماء وأعلام صفاتية، ولعالم الملكوت أسماء، وللأنبياء أسماءهم الذاتية والصفاتية.

وأطلق القرآن أسماء مشتقة لاعتبارات متعددة كالمهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وكالأنصار الذين آووا من هاجر إليهم. وكالربانيين والرَّبِّيِّين والأحبار.

وأسماء الصفات كالتائبين والعابدين والصابرين والشاكرين وغيرها وهي أكثر من الحصر هنا، ولقد سُمي من حضر بدرًا بالبدرين وأهل بدر.

وسمي جماعة بالخشوعيين؛ لأن جدهم الأعلى كان يؤم الناس فمات

(١) تاريخ بغداد: ج ٥ : ٢٦٧.

(٢) الرسالة القشيرية: ١٣٧

(٣) كشف المحجوب ج ١: ٢٣٠

بالخراب<sup>(١)</sup>. كما تسمى بعض الأفراد لمناسبات مختلفة بأسماء مشتقة من نفس المناسبة. فسميت أسماء بنت أبي بكر بذات النطاقين لخبر الهجرة المعروف وتسمى أبوها بالصديق وتسمى الزبير بالحواري، وأسامة بالحب، وأبي عبيدة بأمين الأمة<sup>(٢)</sup>، وسمي محمد بن صالحه بالسجاد<sup>(٣)</sup>.

وفي هذا كله ما يكفي للرد على من سما بالصوفية فوق الرسم والتسمية وبالغ في نسبتهم؛ لأن رتبة النبوة فوق الصحة والصحة فوق التابعين والتابعين فوق تابعيهم.

وهذه الرتب باعتراف جميع الصوفية فوق رتبة الصوفي، ومع هذا فقد أطلقت بعض الأسماء الجماعية والفردية لمناسباتها ورسومها على رتب الأنبياء ومن الأهم ومما يدحض زعم من منع التسمية أنهم اتفقوا فيما بينهم كذلك على تسمية أكابر الأولياء بالأخيار والأبدال والأوتاد والأقطاب والغوث فمن أين صحت التسمية والحال أن هؤلاء هم أرق سالكيهم وأقرب واصليهم؛ وعلاوة على هذا كله فإن الله اعتبر المعرفة بالسيما والعلامة في قوله ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

### مشكلة الاشتقاق

ومع أن الغالبية يرون جواز التسمية -والحق معهم- ويطلقون لفظة الصوفي على من سلك طريق القوم فإنهم مع هذا يختلفون حول أصل الاشتقاق فيرده

(١) وفيات الأعيان ج ١: ٢٤٣

(٢) البخاري ج ٥: ٢٧: ٣٢

(٣) طبقات ابن سعد ج ٥: ٤٩

الكلاباذي إلى أمور وصفات باطنية وإلى رسم ومناسبات ظاهرية.

أما الأصول الباطنة: فترجع إما إلى الصفة الحسنة، وإما إلى الصف الأول. كأنهم بارتفاع همهم وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بين يديه بسرائرهم في منزلة الصف الأول، وإما إلى الصفاء وهو الأصل الذي تحزب له عدد غير قليل من أبناء الطريق؛ نظرا لمناسبته في المعنى مع غاية التصفية والتحلية التي ينشدها السالكون عموماً؛ ولذا يصرح إبراهيم الخواص (٢٩١ هـ) بأن الصوفي اشتق اسمه من الصفا فصفا ونأى<sup>(١)</sup> وينشد الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا      فيه وظنوه مشتقاً من الصوف  
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى      صافي فصوفي حتى لقب

وهم في هذا الصدد يخللون تلك النسبة ويشيرون إلى طريق الصفا للقيام لله عز وجل في كل يوم ووقت بشرط الوفاء<sup>(٢)</sup> مثلما حدثنا أبو الحسين القناد وهو طريق الكسب على نهج الشرع الذي ابتدأ العبد منه وتحقق بالعبودية ووصفا من كدر البشرية وعن مازجة الأكوان والنعوت والرسوم، ووصل إلى حال الفناء والمكاشفة (صوفي لأنه صوفي) كما هو عند طاهر المقدسي وأحمد بن عطاء الأدمي (٣٠٩ هـ) والمجويري ويشاركون في هذا الرأي الجليلاني<sup>(٤)</sup>.

وأحيانا يذهب أنصار هذا الاشتقاق إلى أن الصفاء الذي هو أصل لكلمة صوفي مقصور على من وصل إليه بطريق الجذب لا بطريق الكسب وكل صفاء

(١) تاريخ بغداد ج ٦: ٨

(٢) طبقات السلمى: ١٠٣

(٣) اللمع: ٤٦: ٤٧

(٤) طبقات السلمى: ٦٥ واللمع: ٢٩٦ وكشف المحجوب ج ١: ٢٢٨ - ٢٣٠

بغير الوهب لا يصلح مصدرًا ومنبعًا لكلمة صوفي بل يقال لمن صافاه الكسب أو الحب : صاف أما من صافاه الحبيب فهو صوفي<sup>(١)</sup>.

وبناء عليه فالصوفي اسم يطلقونه على كامل الولاية والتصفية، ومن دون ذلك لا يصح في نظر هؤلاء إطلاق اسم الصوفي عليه وإنما يسمى متصوف أو مستصوف أو زاهد أو فقير أو مريد أو سالك أو غيرها؛ لأن هذه الأسماء ينتحلها السالك وهو في بدايات ومتوسطات الطريق، فإذا جذب أو وصل إلى النهايات مع التحقق بالتصفية والمذاقات سمي صوفيًا.

وإذا انتقلنا إلى المصادر الظاهرة للفظه صوفي نجد أن البعض يرجعها إلى الصُّفَّة نسبة إلى رجال كانوا يسكنون صفة في مسجد رسول الله ﷺ. ولا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة. ويعملون نهارًا في رضح النوى، ويشغلون ليلاً بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته. فلما تشابه رسمهم في الاجتماع والتألف والصحة وتشابهت أحوالهم في الغربة والهجرة والفقر والجوع ودنوا من صفات أهل الصُّفَّة نسبوا إليهم حسبما ساق ذلك السراج والكلاباذي وابن الجوزي<sup>(٢)</sup>.

وتحس أبو الفرج عبد الرحمن إلى جعل اللفظة مأخوذة من العلامة صوفة التي علقتها والدّة الغوث بن مر بن إد بن طابخة على رأسه حينما أنجته وكبر ونذرته للكعبة خادماً لها وفاء بوعداها إن ولد لها ذكر، أو أن الغوث أصابه الحرب أثناء الخدمة فوقع فقالت أمه: لقد صار ابني صوفة وسواء قالت هذا أم علقت بالفعل خرقة صوف: فإن البعض ذهب إلى نسبة الصوفية إلى هذا الجاهلي

(١) نفسه.

(٢) اللمع ٤٧ والتعرف ٢١ - ٢٥ وبلبيس إبليس: ١٦٢

وأولاده من بعده لمشابھتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه<sup>(١)</sup> على حد قول ابن الجوزي الذي استند في تصحيحه لهذا الرأي إلى رأي الوليد بن القاسم وإشارات الزمخشري والفيروز أبادي في كتابيهما أساس البلاغة والقاموس المحيط؛ على أنه من المعلوم أن سر تحمس ابن الجوزي لهذا الرأي هو حبه في إرجاع التصوف إلى الجاهلية بدلاً من الإسلام؛ لموافقة ذلك لهواه المعادي لكثير من آراء القوم.

وعد السهروردي من بين الآراء في أصل الكلمة قول القائل: إنها من الصوفة الملقاه والخرقه التي لا يرغب فيها أحد لاختيارهم طريق الذبول والانكسار والتواضع. فيقال: صوفي إلى الصوفة كما يقال: كوفي نسبة إلى الكوفة والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق<sup>(٢)</sup>، وقريب منه أيضاً ما قيل من أنها ترجع إلى صوفانة وهي البقلة الوعناء والقصيرة وإنما نسبوا إليها؛ لاكتفائهم بيئات الصحراء، أو أن الصوفي لما عطف به إلى الحق وصرف عن الخلق كان كصوفة القفا فإليها انتسب<sup>(٣)</sup>.

وبالغ البيروني حين أرجع الاسم إلى كلمة سوف اليونانية؛ للتشابه بين أفكار بعض الصوفية وبين النظريات الفلسفية كالقول بوحدة الوجود والاتحاد. فلما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم<sup>(٤)</sup>.

ويؤيد هذا الرأي من المستشرقين فون هامر وسكاليجر، ومحمد لطفي جمعة

(١) تليس إبليس ١٦١ - ١٦٣

(٢) عوارف المعارف: ٦٥

(٣) تليس إبليس: ١٦٣

(٤) تاريخ التصوف في الإسلام: غنى ٦٧، ٦٨ نقلا عن كتاب البيروني ذكر ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة.



بين الصوفية بصورة فلسفية إلا بعد ظهور كلمة صوفي بما يزيد عن خمسة قرون، ولو كان من أصل يوناني؛ لنبه عليه الصوفية ولنص المؤلفون من العرب على هذا الاشتقاق وذكره ضمن ما ذكروا مما دخل اللغة العربية من ألفاظ أعجمية خاصة وأنهم ما كانوا يأنفون من ذكر الألفاظ المتعربة والتي تراها أحياناً في القرآن ذاته مثل قوارير وغيرها.

وعلاوة على شواهد اللغة والتاريخ فإن اشتقاق اللفظة من غير الصوف يرجع إلى معان خاصة أو لاعتبارات معينة ككونها مأخوذة من الصفاء المرادف للنفاء أو الوارد من طريق الجذب.

وإذا ركنا إلى من يقول: إن السالك صفاً فصفيّ فهو صوفي لاصطدمننا مع من يقول: إن من وصل إلى حال الصفاء لا تناله العبارة والتسمية ومن لا يناله أي منهما كيف نسميه؟ والاعتبارات أو المعاني الخاصة تتنافى مع ما يجب أن تكون عليه التسمية من عموم وتعميم.

### الترجيح

الاسم في اللغة: إما جامد وإما مشتق والجامد ما لم يؤخذ من غيره والمشتق ما أخذ من غيره بصورة تميزها اللغة، ولا نعدل من وصفنا بالاشتقاق إلى وصفنا له بالجمود إلا عند تعذر إرجاعه لأصل من الأصول، وإذا أمكن إرجاعه أرجعناه بشرط خضوع الرجوع إلى قواعد الاشتقاق المقررة لغة وإلى السلم الذي نتبعه عائدين إلى الأصل أو منبثقين منه، وعندما نعثر على أصل لا يحتاج إلى إبدال أو تغيير أو دعوى وتعليل لا ينبغي التفريط فيه أو الانصراف عنه.

وطبقاً لهذا فإن كلمة صوفي من المشتقات التي ترجع إلى كلمة صوف يقال: تصوف إذا لبس الصوف فهو صوفي أي منسوب إلى ملبسه كما تُنسب الحواريون

إلى ظواهر اللبسة (الآية ١١٢ المائدة).

ونظيره في اللغة تغمص إذا لبس القميص وحقيقة اشتقاق الكلمة من الصوف أو نسبتها إليه لم يستطع إنكارها أحد أو لم يقدر على إبطاها حتى أولئك الذين يرون أن كلمة صوفي منسوبة إلى الصفاء أو غيره.

وما دام الوضع كذلك؛ فلا غرو أن يتفق جمهور الصوفية على أنها منسوبة إلى الصوف الذي هو ظاهر اللبسة<sup>(١)</sup> حسبما قرر أبو نصر السراج، وإذا نسبتها إليه استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة<sup>(٢)</sup> حسب رأي الكلاباذي والغزالي ويعلل السهروردي اختياره لهذا الرأي بأنهم لما كانوا متقلبين في الأحوال لا يقيدهم وصف ولا يجبسهم نعت تعذر تقيدهم بحال وجدانهم فنسبوا لظاهر ما يلبسون، وهو أبين في الإشارة إليهم وأدعى إلى حصر وصفهم، والإشارة إلى زيههم ستر لحالهم وغيره على عزيز مقامهم وأقرب إلى الأدب معهم؛ كي لا تتداول الألسنة رقيق أحوالهم.

وكذلك فإن النسبة إلى الصوف تدفع المرید إلى الاقتداء بهم ابتداءً وتجعله يعلم أن المأكول في التقشف والتقليل كالملبوس سواء بسواء.

والنسبة إلى غير الصوف تحتاج إلى تعليل وإليه لا تحتاج، وما لا يحتاج أولى مما يحتاج، والنسبة إليه حكم على الظاهر وإلى غيره كالصفاء حكم على الباطن والحكم على الظاهر أولى من الحكم على الباطن<sup>(٣)</sup>.

(١) اللمع: ٤١.

(٢) التعرف: ٢٥ ومنهاج العابدين للغزالي: ٩٥: ٩٦.

(٣) عوارف المعارف: ٦٥.

ولتصحيح اللغة لتلك النسبة ولهذه العلة الخاصة بما جعلها ابن تيمية معروفة<sup>(١)</sup> وحكم ابن الجوزي بأنها الأمر المحتمل<sup>(٢)</sup> وهي الأظهر عند ابن خلدون<sup>(٣)</sup> وإليه ذهب الشيخ حسن رضوان وزكي مبارك واتفقت كلمة ماسنيون ونيكلسون ونولدكه ؛ على أن الكلمة مأخوذة من المصدر الخماسي المصوغ من صوف للدلالة على لبس الصوف<sup>(٤)</sup>.

وهذا هو أقرب الأقوال إلى العقل والمنطق والموازن اللغوية<sup>(٥)</sup> كما شهد بذلك قاسم غني. وبالتالي فينبغي دحض ما عداه من الفروض؛ لعدم استنادها على اللغة أو حوادث تاريخية، والأولى قفل باب المناقشة في هذه المسألة؛ طالما أنه وجدت الحجج الصحيحة على صدق فرض ما.

وطالما أنه لا يترتب على صحة الرأي بطلان أو تناقض، وهو يخرج من الخلاف ويحسم التراع في مسألة تعتبر شكلية إذا قيست بالحقائق الجوهرية في هذا الموضوع؛ ولأن الكلمة صارت اصطلاحية فلا مشاحة فيها، وأود أن أنه على أمرين:

أحدهما: أنه لما ثبت صحة اشتقاق اللفظة من الجذر صوف بطل ادعاء القشيري الذي ذهب فيه أنه لا يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا

(١) رسالة الصوفية والفقراء.

(٢) تليس إبليس: ١٦٣.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ٣٥٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية المجلد التاسع: ٣٢٨ والصوفية في الإسلام نيكلسون ٣، ٤.

والإسلام نهج حياة: ١٢٣.

(٥) تاريخ التصوف في الإسلام: ٦٨، ٦٩.

اشتقاق والأظهر فيه كاللقب<sup>(١)</sup> كيف لا وهو الذي صرّف الكلمة واستخرجها وقاسها على تَمَمَّص كما بطل زعم الهجويري في قوله: واشتقاق هذا الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أي معنى من المعاني<sup>(٢)</sup>.

ويذهب إلى أنه اسم من أسماء الأعلام مع أننا رأيناه من الأعلام المشتقة، ولا بد وأن يكون القشيري والهجويري قد جانبا الصواب سواء قصدا إنكار الاشتقاق ظاهراً أم قصدا إنكاره بحسب الباطن والمعنى والمقام والحال وتعذر المجانسة بينه وبين الأشياء؛ ولأننا وقفنا على صحة اشتقاقه من الأصل صوف ومن مصدره الخماسي ولا يُعدل عن الاشتقاق إلى الجمود ما وجدنا إلى الأول سبيلاً. كما أثبتنا أن الحال مهما رق وشف يمكن أن ننسب إليه ولا يوجد ذوق تتعذر النسبة إلى ثمار ذوقه.

والثاني: لسائل أن يقول: كيف نشق اسماً من الصوف؛ لنجعله مصطلحاً على القوم مع أن جميع أفرادهم لم يتفقوا على لبسه كما سبق؟

وللإجابة على هذا نقول: إنه اشتقاق من الزي الغالب وإطلاق باعتبار الغالبية، ومن المعلوم أن إطلاق التسمية لا يشترط فيه مشاركة كل فرد فرد في أصل النسبة بل ربما نطلق اسماً على جماعة ننتزعه من نسبة لبعض أفرادها فقط ثم نُعممه على الجميع؛ ولذا جوز الهجويري: أن يكون في الجيش مبارزاً واحداً؛ ولكن الجميع ينسبون إليه<sup>(٣)</sup>

(١) الرسالة: ١٣٧.

(٢) كشف المحجوب: ٢٣٠.

(٣) نفسه: ٢٤٣: ٢٤٤.

## التوفيق

ولما ظهر بوضوح صحة النسبة لغة إلى الصوف وبها استمسك الكثيرون، وتردد البعض بين الفروض الأخرى ولا يمكن أن تخفى عليهم صحة الاشتقاق الراجح كان لابد من وقفة نعيد فيها تقييم هذا الاختلاف؛ لنرى هل هو من النوع الذي لا تلتقي أطرافه لاستحكام التضاد أم أنه اختلاف بسحب النظريات الخاصة التي يمكن ضمها معاً وإرجاعها إلى أصل واحد تلتقي عنده؟ فيكون بينها علاقة العموم والخصوص من وجه.

والحق أنه بأدنى تأمل يمكن أن يذوب الخلاف وأن تتجمع الفروض المتناثرة عند نظرة أساسها أن التسمية حُددت أولاً بظاهر اللبسة ثم توسع في معناها لتشمل الجوانب الباطنية، وكأن التسمية في بداية إطلاقها بالرسم لاعتبار الزي ثم نظر الصوفية فيما بعد إلى سرهم وصفاء باطنهم وأرادوا أن يكون اسمهم شاملاً لظاهرهم وباطنهم فأبرز كل صوفي صفة خاصة من الصفات الباطنية وأولاهها اهتماماً كبيراً.

ولفت كل صاحب ذوق أو حال أو مقال نظر الآخرين لما يراه مُهمّاً في نظره فتعددت النظرات الخاصة والفروض الهامة مع عدم إنكار الأصول الأول الذي تُسبت إليه الكلمة ابتداءً، وبهذا الفهم تصبح كلمة صوفي شاملة معاني الظاهر ولمعاني الباطن من الصفاء والصف الأول والصفة والصفة وغيرها من الفروض الخاصة التي تطرقت بالكلمة من السمات والهيئة إلى الصفة والسر. وبهذا استقام أصل الاشتقاق الموافق للغة وتمشت معه الفروض وقربت المآخذ.

ولنستمع إلى أبي الحسين النوري وهو يضع أيدينا على مفتاح التوفيق إذ يقول: سميت الصوفية بهذا الاسم لاشتمالها عند الخلق بظاهر العابدين وانقطاعها

إلى الحق بمراتب الواحدين<sup>(١)</sup> ويجمع أبو علي الروزباري في الاسم بين الظاهر والباطن فيصرح بأن الصوفي من لبس الصوف على الصفا<sup>(٢)</sup> ولبس الصوف إشارة إلى النسبة الظاهرة، وقوله على الصفا تنبيه منه على الاهتمام بالباطن وتوسع في معنى اللفظة لتشمل ما ظهر وما استتر.

ومهما بدت الفروض السابقة في أصل الاشتقاق متغيرة في الظاهر فإن المعاني متفقة<sup>(٣)</sup> واسم الصوفي صادق عليها وعلى كل معنى من معاني القرب وهو مشتمل على جميع المتفرق في هذه الأسماء<sup>(٤)</sup> على حد تعبير الكلاباذي والسهرووردي.

ومن هنا فلا يوجد تضاد أو تناقض بين الفروض المذكورة يمنع من اجتماعها إذا نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية الشاملة، والتي غابت على كثير من الباحثين فظنوا أن الصوفية اختلفوا في نسبة الكلمة اختلافاً بيناً فراح كل باحث يتعصب لفرض أو تستهويه نظرية معينة فيكسر لها جهده ويُسخّر لها قلمه ويجمع لها شتات العلل والأسانيد ظناً منه أن هذا الفرض منفصل تمام الانفصال عن الفروض الأخرى مع أن الحقيقة ليست كذلك بل هي على النحو الجامع الذي ألمحنا إليه.

وللتسمية بهذا المفهوم أصل في الشرع ونظائر في بعض العبادات؛ حيث نراها تطلق على الرسم ويطلب من العابد القيام بمقتضى تلك التسمية في الظاهر؛ ولكنه لا يجمع حقيقة الشعيرة ولا ينال ثوابها عند الله إلا بالتوسع في هذا الأصل؛ ليشمل الصفات الجوانية والنفسية هي الأخرى.

(١) اللمع: ٢٩٦.

(٢) نفسه.

(٣) التعرف: ٢٤.

(٤) عوارف المعارف: ٦٥ : ٦٦.

وذلك كالصوم فإنه في اللغة الإمساك ثم انتقل من هذا المعنى إلى المعنى الشرعي ليصبح الإمساك عن شهوتي البطن والفرج وهو أمور ظاهرة ثم انتقلت؛ لتشمل جميع الجوانب النفسية الظاهرة والباطنة والتي بها يتحقق العبد بقوله سبحانه «الصوم لي وأنا أجزي به» وبدونها لا يكون للصائم من صيامه إلا الجوع والعطش كما قال رسول الله.

والصلاة كذلك هي: الدعاء لغة وهي عبادة ذات أقوال وأفعال مخصوصة شرعاً، وإن أدت بشروطها الشرعية الظاهرة بدون خشية ومذلة وتواضع لا يستفيد منها المصلي ولا تقوم بدور الراعظ النفسي تنهائه عن الفحشاء والمنكر من داخله.

ولفظه المهاجر تطلق أصلاً على من هاجر من مكة إلى المدينة وفي الباطن «لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وهكذا كل عبادة من العبادات أو شعيرة من الشعائر لها معنى لغوي ولها معنى شرعي ظاهر ولها جوانب باطنية هي: جوهر حقيقتها وأساس التكليف فيها وبها تقع الفائدة.

ويكفي أن نعلم أن كلمة النسك في قوله تعالى «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي» [الأنعام: ١٦٢] كانت في اللغة بمعنى الفضة الخالصة المصفاة من كل خلط ثم استعملت لما يتقرب به إلى الله تعالى<sup>(١)</sup> كما قال النووي: لوجه شبه بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول إليه اللفظ نلمسه في ضرورة التصفية والإخلاص والنقاء

(١) مسلم بشرح النووي ج ٢: ٤٢٧.

من الكدر.؛ وهكذا احتوى القرآن واشتملت السنة على أمور لها معان لغوية وشرعية وحقائق باطنية، واللفظية جامعة لها، كجماع كلمة التصوف وشمولها.

### متى ظهرت التسمية؟

التسمية لأي علم من العلوم لا تولد فجأة ولا توجد إلا بعد أن يتخلق الهيكل العام لموضوع العلم والذي يتدرج في التكوين شيئاً فشيئاً، وقد يحدث له في أثناء تدرجه أن يتسمى بعدد من الأسماء، كل اسم يتناسب مع حلقة معينة من حلقات موضوع العلم؛ وأحياناً لا تمحى بالكلية بعض الأسماء المرحلية عند استعمال التسمية الاصطلاحية.

وبالرجوع إلى سجل الأسماء في تاريخ الحركة الروحية نجد أن اسم الصحبة كان أجل وأعظم لمن صحب رسول الله ﷺ إذ هم كما يقول السراج: أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين وغير ذلك<sup>(١)</sup> ولكون الصحبة أجل الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة<sup>(٢)</sup> غيرها.

والطوسي هنا مؤلف عبقرى يجمع كثرة المرادات في عبارة واحدة؛ حيث يبين فيها أن مقامات الزهاد والصوفية وأحوالهم ترجع إلى حياة الصحابة وسلوكهم وتجاربهم النفسية ومع وجود كثرة من الأسماء إلا أن اسم الصحبة يفوقها جميعها؛ لبركة اللقاء برسول الله ويتفق معه في هذا الرأي جميع الصوفية كما ذكر القشيري والسهورودي<sup>(٣)</sup> مصرحين بعلو رتبة الصحبة.

ولم تفتقر أفضليتها على ذوات الذين التقوا بالرسول فحسب إنما كانت من

(١) اللمع: ٤٢.

(٢) اللمع: ٤٢.

(٣) الرسالة: ٨ وعوارف المعارف: ٦٦.

السعة في الفضل والعلو إلى درجة أن فاضت بالشرف والسمو على رتبتين بعدها هما التابعون وتابعوهم.

وقد ظلت تلك الرتب الثلاث تربو على كل ما عداها إلى يومنا هذا مع تحقق التفاوت بينها الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، وكل درجة في الطاعة أو في العلم إنما تقتبس من شعاعات هذه الرتب؛ ولكننا لا نستطيع نسبة الدرجات التالية لها إلى ما لا نهاية أو إضافتها إليها؛ لأن التسلسل يُخرج التسمية عن الاختصار الذي هو شرط جوهرى في أي عنوان؛ علاوة على أن الحصر للتابعين ومن تبعهم وتبع من تبعهم إلى آخره أمر يبدو صعباً ومستحيلاً أحياناً ولذا اقتصر في التسمية على تابعي التابعين.

ومع اعترافنا وبقيننا بأفضلية هذه الرتب ويمدى الاهتمام البالغ الذي كان يبذل لإبراز صفة الصحبة والتابعة وما بعدها خصوصاً في إسناد الروايات وربط العلماء بمن رروا عنهم من تابعي التابعين أو التابعين أو الصحابة؛ لإضفاء القوة العلمية المستمدة من حسن الصلة بأرباب المنازل والأحوال السنية من ناحية ولبيان الفضل للمتحدث عنه من ناحية أخرى.

فإننا نقرأ عن ألفاظ أخرى زاحمت لفظة التابعين وتابعيهم كالزهاد والنسك والعباد، ونسمع عن كثير من التابعين ومن والاهم ألفاظاً تحمل دلالات روحية خاصة كالقول: بأنه كان يتزهد أو كان يجتهد في العبادة أو كان ينسك أو كان يتقلل أو كان يعزل<sup>(١)</sup> ووُصِف بعضهم بالعبارات التي تنم عن التذوق العاطفي كالخوف والحب أو عن التوحيد واليقين كالثقة والرضى، ولم تضاف هذه الزيادات السلوكية أو العاطفية أو اليقينية إلا لمن لهم شدة عناية بأمر الدين من

(١) انظر طبقات ابن سعد خاصة وكتب الطبقات عامة.

أصحاب الرتبين ممن كانوا بحق مؤسسي الحركة الروحية وباكورتها أما من عداهم فاكتفى معه بذكر التابعي أو تابع التابعي.

ولما تقادم زمان الرسالة وبعد عهد النبوة، وتوارى النور المصطفوي واختلت الآراء وتنوعت الأنحاء وتفرد كل ذي رأي برأيه، وكدر شرب العلوم شوب الأهوية. وتزعزت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت الجهالات وكثف حجابها وكثرت العادات وتملكت أسبابها وتزخرفت الدنيا وكثر خطاها تفردت طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق في العزيمة وقوة في السدين وزهدوا في الدنيا ومحبتها واغتموا العزلة والوحدة واتخذوا لنفسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة بأهل الصفة... وأثمر لهم صالح الأعمال سني الأحوال... فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به فالاسم ستمهم<sup>(١)</sup>.

وهذا النص يوضح لنا حال هذا الجو الذي نشأ فيه التصوف وبرزت على ساحاته جماعاته وطرقه كرد فعل لما عليه المجتمع كما بين ظهور الاسم كسمة مميزة لهذه الطائفة عن غيرهم والذي سبق أن دللنا شرعاً على جواز التسمية لأي مناسبة من المناسبات، وكوفهم تسموا بهذا الاسم لا مرأى فيه ولا شك؛ ولكن الذي يحتاج إلى إيضاح هو متى ظهر هذا الاسم؟ أو متى أطلق؟ ومتى شاع؟

ولكي نجيب على هذا السؤال نضع أيدي الباحثين على اتجاهات ثلاثة:

الأول: ما يرويه محمد بن إسحاق وهو أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات؛ حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف<sup>(٢)</sup> ويعلق السراج على هذه الرواية

(١) عوارف المعارف: ٦٦.

(٢) اللمع: ٤٣.

بأسلوب الشك قائلًا: فإن صح ذلك؛ فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان ينسب إليه أهل الفضل<sup>(١)</sup>.

**والاتجاه الثاني:** يبرز ظهور الكلمة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ويبدو من قول الحسن البصري (١١٠هـ) رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانق فيكفييني ما معي<sup>(٢)</sup>.

وكان عاصم بن سليمان الأحوال المتوفى (١٤٢هـ) قد انضم إلى القوم فترة وأعجب بهم ثم هجرهم وقاطعهم قائلًا: مازلنا نعرف الصوفية بالحمق إلا أنهم يستترون بالحديث<sup>(٣)</sup>، وندع الخوض في أسباب حملته على الطائفة والتي لا بد أن ترجع إلى مزاجه الشخصي وإلى نظراته هو ولنمسك بما يهمنا وهو استخدامه للفظ الصوفية قبل انتهاء النصف الأول بكثير.

ويحدد سفيان الثوري شخصية صوفية إذ يقول: لولا أبو هاشم الصوفي (١٥٠هـ) ما عرفت دقائق الرياء<sup>(٤)</sup> وكذلك أطلق على جابر بن حيان لفظ الصوفي.

**وأما الاتجاه الثالث:** فتدل أقوال رجاله؛ على أن الكلمة ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ونسوق في هذا الصدد إجابة عبد الواحد بن زيد (١٧٧هـ) حين سئل من الصوفية عندك؟ فقال: القائمون بعقولهم على همومهم والعاكفون عليها بقلوبهم المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) تلييس إبليس: ٣٧١-٣٧٢.

(٤) اللمع: ٤٢.

الصوفية<sup>(١)</sup>.

وعندما خرج عبد الله بن المبارك (١٨١هـ) من بغداد يريد المصيصة صحبه الصوفية<sup>(٢)</sup>، ويقول الإمام الشافعي (٢٠٤هـ): صحبت الصوفية عشر سنين فما استفدت منهم إلا هذين الحرفين، الوقت سيف وأفضل ألا تجد<sup>(٣)</sup>، وإذا كان من المعلوم أنه ولد سنة (١٥٠هـ) في غزة ثم رحل إلى مكة ومكث بها من (١٥٤هـ) إلى (١٧٠هـ) ثم انتقل إلى المدينة وبقي بها حتى توفي الإمام مالك (١٧٦هـ) ثم رحل إلى العراق ومكث بها حتى عام (١٩٨هـ) ثم جاء إلى مصر وبها توفي.

فإن المرجح أن تكون الفترة التي التقى بها بالصوفية في مكة؛ لأنها هي الزمن الذي كان فيه الشافعي تلميذاً وطالباً للحقيقة في مظاهرها أما فترة المدينة فهي أقل من عشر. وفترات العراق ومصر كان الشافعي فيهما أستاذاً يعلم.

ومن هنا فإن الكلمة في عبارة الشافعي كانت مستعملة ما بين عام (١٥٤-١٧٠) أي في النصف الثاني وقبل المائتين كما هو رأي القشيري وابن الجوزي والسهورودي<sup>(٤)</sup> على حين خلا كتاب الطبقات لابن سعد الذي ترجم لكثير من الزهاد والنسك إلى منتصف القرن الثالث الهجري من ذكر اللفظة.

وبعد أن وقفنا على هذه الاتجاهات بنصوصها يهنا الآن أن نعطي لها قدرًا صحيحًا من المناقشة؛ لكي نتبين الحقيقة العلمية من خلالها، فنرى أن خلو كتاب

(١) اللمع: ٤٥.

(٢) تاريخ بغداد ج ١٠: ١٥٧.

(٣) طبقات الشعرا ج ١: ٤٣.

(٤) الرسالة وتليس إبليس: ١٦٣ وعوارف المعارف: ٦٦.

ابن سعد من استعمال اللفظة لا يرجع إلى عدم إطلاقها وإنما يعود إلى أن اهتمام ابن سعد الواسع كان منصباً على الصحابة ثم التابعين وتابعيهم برتبهم المشهورة وأنه شغل بحركة السياحة والتنقل والاستيطان لرجال الرتب الثلاثة، والذين ذكرهم ممن لا يدخلون تحت هذه الرتب فهم قلة ولم يعطهم ترجمة وافية، وفوق هذا فإن البحوث النظرية والدراسات التحليلية لم تنل منه كبير عناية ولا عظيم اهتمام، بقدر ما نالت منه سلاسل الرواة.

وأما الاتجاه الأول: فليس فيه ما يقطع بأن اللفظة كانت مستعملة قبل الإسلام بل الراجح أن ابن إسحاق أطلق لفظة صوفي التي هي علم على الزهاد والعباد والعارفين في عصره على رجل نَسَكَ نُسُكَ الجاهلية للتشابه في التزعة، وهذا يحدث مع كثير من العلوم التي استحدثت لها مصطلحات خاصة فإن موضوعاتها تساق وتدرس تحت الأسماء المستحدثة، وكم من النظائر القيمة تذكر بمفاهيم جديدة وبلغة غير التي استعملت في عصرها!

ويؤيدنا في عدم استعمال الكلمة أنه لم يصل إلى علمنا ذكر للفظ صوفي على لسان الشعراء أو الخطباء الجاهليين، ولم يشيروا إليها من قريب أو بعيد، مع العلم بأن ألفاظ النسك والتعبد والتحنث كانت ذاتة ومشهورة.

وإذا كان الأمر كذلك وأنه من المعروف أن ابن إسحاق ولد (٨٥هـ) بالمدينة ورحل إلى الإسكندرية (١١٥هـ) ثم رحل إلى البري والكوفة والجزيرة والحيرة ثم العراق وأخيراً توفي (١٥١هـ) فإنه يصبح من المؤكد أن اللفظة سمعت في هذا التاريخ وتلقاها ابن إسحاق أينما حل وهذا يعين كذلك أن الصواب مع أصحاب الاتجاه الثاني الذين يرون أن استعمال الكلمة بدأ مع مطلع القرن الثاني بدليل أنها تنقلت بين استعمالاتها كالأستعمال المفرد وغير المحدد عند الحسن البصري، وكالأستخدام الشخصي مثل إطلاقها على أبي هاشم، وكأستعمالها

بصيغة الجمع حسبما ورد في عبارة عاصم وتم كل ذلك قبل أن يتتصف القرن الثاني.

وفيه رد قوي على ماسنيون حين زعم أن كلمة صوفية بصيغة الجمع ظهرت عام (١٩٩هـ) في خبر فتنة قامة بالإسكندرية<sup>(١)</sup> مستنداً إلى ما قاله الكندي في الولاة والقضاة قال: وظهرت بالإسكندرية طائفة يسمون بالصوفية بأمرهم بالمعروف فيما زعموا ويعارضون السلطان<sup>(٢)</sup>.

وعندي أن قول الكندي هذا والسؤال الذي وُجِه إلى عبد الواحد بن زيد وإجابته. وصحبة ابن المبارك للصوفية في رحلته إلى المصيصة وصحبة الشافعي لهم عشر سنوات مما يبرز ظهورها. مسبوق كل هذا باستعمال كلمة صوفي وصوفية على السنة من ذكرنا من رجال الاتجاه الثاني الذي حدد ظهور الكلمة في النصف الأول من القرن الثاني.

وهذا سبق لا بد وأن يدحض رأي ابن الجوزي القائل: إن الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين<sup>(٣)</sup> ويطل ما ساقه السهروردي من أنه لم يكن معروفاً إلا في المائتين<sup>(٤)</sup> من الهجرة.

وإن صح أن هؤلاء استندوا إلى عبارة القشيري الذائعة ألا وهي واشتهر هذا

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج ٩: ٣٢٨.

(٢) د. / إبراهيم بسيوني: نشأة التصوف الإسلامي: ١١٥ نقلًا عن الولاة والقضاة للكندي: ١٦٢: ١٦٣.

(٣) تلبس إبليس: ١٦٣.

(٤) عوارف المعارف: ٦٦.

الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة<sup>(١)</sup>.

فإنه قد فات هؤلاء المؤلفين - كما فات كثيراً من الباحثين - أن يفرقوا بين الإطلاق والاشتهار الذي تحدث عنه القشيري، إذ ما وقع بين أيدينا من نصوص يقطع بأن الكلمة مرت بمرحلتين:

مرحلة الإطلاق: التي تتمثل في ورودها على ألسنة البصري وعاصم والثوري، ولا يخفى أن مجرد الإطلاق ضرورة؛ لذيوع فكرة ما أو مصطلح معين، والكلمة عادة تطلق وتظل محصورة في نطاق ضيق وبين أفراد معينين، وكل إطلاق له ظروفه التي تتحكم في صياغته وتداوله ثم اشتهاره، وما كان للقشيري أن يرفض مرحلة الإطلاق ولا بد أن يكون قد اطلع على كتاب السراج الذي ذكر فيه.

أما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال؛ لأنه في وقت الحسن البصري كان يعرف هذا الاسم<sup>(٢)</sup> وتلك إشارة صريحة إلى مرحلة معرفة الاسم في مستهل القرن الأول قبل أن تبني مدينة بغداد وتصير مجمعا للعلماء، والمعرفة لا تعني سوى الإطلاق هنا.

### مرحلة الذیوع والانتشار

ولما أراد أبو نصر الطوسي الحديث عن المرحلة الثانية التي عيناها بالاشتهار استعمل كلمة (وشاع) بدلا من (عرف) ولا فرق بين شاع عند السراج وبين اشتهر عند القشيري إذ كل منهما يعبر عن مرحلة الذیوع بعد الإطلاق وإن كنا

(١) الرسالة في المقدمة.

(٢) اللمع: ٤٥.

نلاحظ أن الذبوع تأخر قليلاً عن الإطلاق أي لم تأخذ الكلمة طريقها إلى الاشتهار سريعاً لعدة عوامل:

منها ما قلناه من شرف الرتب الثلاثة في الصحبة والتابعة وتابع التابعين، وهذا يقضي أنها تحجب ذبوع أي لفظة اصطلاحية لجماعة ينتمون إلى أي رعييل من هؤلاء الثلاثة، وإن سمحت بيزوغ نقطة ما لكنها تبقى بلا اشتها ريشما يرحل رجال الرتبة الثالثة فيخلو الجو للأسماء الأخرى.

كما أن من بين العوامل التي أخرت الاشتهار عدم ورود الكلمة ضمن الأسماء الواردة في القرآن والسنة بنصها كما ذكرت كلمة الصابرين والمتوكلين وغيرهما وكما ذكرت كلمة ناسك وعابد وزاهد؛ ولذا صح لهذه الألفاظ أن تراحم أسماء الرتب الثلاثة دون كلمة صوفي، وأيضاً فإن لغة التعقيد الصحيح جاءت بعد تطور الحركة الروحية وقيامها كعلم يحتاج إلى عنوان وسمه خاصة لا ينكرها الشرع حسبما ذكر في الاستدلال سابقاً على صحة جواز التسمية لأي مناسبة.

ورغم أن الاسم أطلق أولاً ثم اشتهر قبل المائتين إلا أن بعض الأسماء عاصرته باسم (الملامتية) الذي أطلق على أتباع حمدون القصار (٢٧١هـ) شيخ هذه الطائفة ومؤسسها بخراسان<sup>(١)</sup>.

كما عرفت طائفة أخرى من الصوفية الخرسانية (بالشكفتية)<sup>(٢)</sup> نسبة إلى الشكفت الذي هو اسم الغار والكهف الذي تجمعوا فيه.

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١: ٧٢.

(٢) عوارف المعارف: ٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية ج ٩: ٣٢٨: ٣٢٩.

وفي الشام تسمى رجال القوم هناك (بالجوعية)<sup>(١)</sup> نسبة إلى الجوع؛ ولكن ما إن جاء القرن الرابع حتى صار الاسم علماً على جميع الصوفية وانضوى تحت مفهومه جميع الأسماء الأخرى.

(١) عوارف المعارف: ٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية ج٩: ٣٢٨: ٣٢٩.